الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٨ —

أسفاره فى هورتون :

كان كل هذا العناء وكل هذا الكدح من أجل الشعر ، الشعر كان فى قرارة نفسه بحيث لو حاول بكل ما فى وسعه ألا يكون شاعرا ما استطاع . وهو يعتقد أن الله سواه ليكون شاعرا ، ولذلك فهو يعلى قدر رسالته ويجعل لها شبه ما للرسالات الإلهية من سمو وخطر ؛ فلا يقتصر على طلب الحكمة والوقوف على ما هو بسبب من تلك الرسالة والإفادة منه ، بل يتطهر إلى جانب ذلك فينقى نفسه من كل شائبة ليكون لرسالته أهلا وليتنزل عليه نورها . ثم إنه يستغرق فى حال صوفية يعدها كذلك من مكونات الشاعرية فيتقرب إلى الله ويبتهل إليه ، لأنه يؤمن أن وحى الشعر يهبط من الله ، يوضح ذلك قوله : « إن مثل هذا ان يصل إليه المرء إلا بالصلاة والقنوت لتلك الروح السرمدية ، لله الذى يؤتى الحكمة ويهب البلاغة فينفى بهما الأنفس ، ويرسل رسله بالنار المقدسة من لدن عرشه فيطهر بها روح من يشاء من عباده . ويجب أن يكون مع الصلاة قراءة مختارة فى جد متصل ، يصحبها تدبر يقظ ، وتعمق للأعمال والمسائل ما هو خير منها وما يبدو كأنه خير . ولقد وصف ملتن مدة إقامته هذه فى هورتون بقوله : « إنها سنوات كثيرة مليئة بالدراسة والتفكير ، قضيت كلها فى البحث عن المعرفة الدينية والمدنية » .

وحتى لأصحابه أن يعجبوا من صبره على المقام فى الريف ، وزهده فى مباهج المدنية . وعجب حتى (ديودانى) من ذلك فكتب إليه يسأله عما هو فيه ، فرد عليه ملتن قائلا : « لقد طالما تساءلت عما أنا فى شغل به ، وفيم أفكر ، فاعلم أن ذلك بمعونة الله هو الخلود . وأرجو أن تغفر لى هذه الكلمة فإنما أهمس بها فى أذنك . أجل ، إنى أريش جناحى استعدادا لأن أطير فأحلق تحليقة » . وكان كتاب صاحبه هذا إليه ، ورده عليه فى أخريات أيامه فى هورتون .

وما كان يريش جناحيه إلا ليطير فى سماء عالية ، ويحلق فى آفاق فسيحة ، فإن موضوعا عظيما لن يبرح يهجس فى خاطره ، ولن يزال حديث نفسه ومنتجع هواه ؛ فأى موضوع هو ومتى ينهض له ؟ ذلك ما لم يتبينه يومئذ على وجه التحديد ؛ ولكن المرء يستطيع أن يستخلص من مادة دراسته ومن طول انكبابه عليها أنه يتأهب لرسالة عليا يتحقق له بها الخلود . ويقول الدكتور جونسون فى هذا الصدد : « من هذا الذى يعد به وقد جمع فيه بين الحماسة والتقوى والتعقل يمكن أن نتوقع الفردوس المفقود » .

على أنه لا يزال بينه وبين الفردوس المفقود سنوات طويلة ، فماذا جرت به يراعته فى هورتون ، أو على الأصح ماذا تغنت به قيثارته ؟

نظم ملتن ثلاث قصائد ، وغنائيتين مسرحيتين إحداهما قصيرة تقرب من مائتى سطر ، والأخرى طويلة نيفت على الألف . ولئن عظمت شهرة قصيدته الكبرى « الفردوس المفقود » فيما بعد حتى بهر نورها القلوب والأبصار ، وأنسى الناس هاتيك القصائد

التي نظمها في هورتون ، فإن جمهرة النقاد متفقون على أنه بلغ ذروة الفن في تلك القصائد الخمس ، وعلى أنه لو لم ينظم غيرها ، لكانت كفيلة أن تحله في الصفوة المختارة من الشعراء الغنائيين في العالم كله قديمه وحديثه ، إن لم تجعل له موضع الصدارة بينهم أجمعين .

وقد نشرت تلك القصائد سنة ١٦٤٥ بعد رحيله عن هورتون بست سنوات ومعها بعض أشعاره اللاتينية. وكان ما ذكره ملتن عنها أنها بمثابة امتحان لقدرته وأنها مقدمة بين يدي وعده لحسب ، ولم يفتأ بعدها يعد بعمل خالد في دنيا الشعر دون أن يشير إلى تلك القصائد كأنه نسيها أو كأنه لا يرى فيها شيئا يحقق جانبا مما يعد به ، وتكشف تلك القصائد الجميلة الخمس ، فضلا عما ترى الناس من مقدرته الفنية ، عن كثير من خلجات نفسه واستجابة حسه ونوازع قلبه ، ومتجه فلسفته . لذلك كانت عظيمة الخطر كسجل لحقبة من حياته . أما تلك القصائد فهي «الليجرو» ، و «البنسروزو» و«أركاوس» و «كومس» و «ليساوس» .

أما الأولى والثانية فكلتاهما تعيض الأخرى في موضوعها ؛ فمعنى الليجرو في الطليانية « الرجل الطروب » ومعنى البنسروزو « الرجل المتفكر » . وتصف الأولى كيف يكون المرح واللهو في أحضان الطبيعة وفي زحمة المدنية ، وتصف الثانية كيف يكون التفلسف في الحياة والركون إلى العزلة ، والتفكر بين الأوراق والكتب . وأما الثالثة فهي الغنائية القصيرة . وأما الرابعة فهي الغنائية الطويلة . وأما الأخيرة فهي في رثاء صديق

* * *

افتتح ملتن قصيدته الأولى « الليجرو » بقوله « إليك عني أيها الأسى المتلكىء » ثم راح يصف الأسى فصوره في صورة مخيفة سوداء . وحسبك أن ينعته أنه يولد من أحلك سواد في منتصف الليل ، ومن الكلب الخرافي ذي الرؤوس الثلاثة والذيل الثعباني ، ذلك الوحش الذي يقوم على حراسة أغلاق العالم السفلي ؛ ويولد الأسى من هذين مجتمعين فهو ابنهما ... ويعود الشاعر فيقول : « اذهب أيها الأسى فابحث عن مأوى لك بين الأشباح المرعبة والصراخ والمناظر الخبيثة حيث يعد الليل الكئيب جناحيه الحريصين على الظلام ، وحيث تغني البومة طائر الليل هنالك تحت الظلال السود وتحت الصخور المكتئبة المتداعية كذوائبك المهوشة . اذهب أيها الأسى ، وابق أبدا في تلك الصحراء الخرافية القصية المظلمة التي ينتهي عندها العالم في الغرب على حافة المحيط » .

وينتقل الشاعر بعد هذه الصورة الكريهة إلى مناجاة الفرح فيقول:

« أقبلي أيتها الآلهة الجميلة الطليقة التي سميت في السماء « أفروسين »[1] ، وسماك الناس السرور الذي يشرح الصدر ؛ أنت يا من ولدتك فينوس[2] وحملتك وأختين لك أخريين إلى باخوس[3]؛ أنت يا من حملت بك أورورا[4]، وهي تلاعب زفير[5] حيث لقيها أول أيام مايو وهما يمرحان على سرر من البنفسج الأزرق والورود الجنية تفتحت لساعتها وغسلها الندى ، فجئت ابنة حسناء بضة مرحة . ثم يمضي الشاعر يعرض صور المرح الذي تجلبه معها عذراء الأساطير التي يناديها ، فهناك الشباب المتوثب الطروب ، واللعب والبسمات العذاب ، والضحك الذي يمسك جنبيه . ويعود فيهتف بتلك العذراء ، ويسألها أن تسرع إليه تخطر على أطراف أصابعها مصطحبة معها عذراء الجبل ، الحرية الحلوة ممسكة إياها بيمناها ، ويشعر المرء بالبون العظيم بين ما سرده من صور الأسى وبين ما صوره من أشكال المرح وأنماطه ، ويقابل بين الناحيتين فتزداد كل منهما انجلاء تلقاء الأخرى .. »

ثم يعمد ملتن إلى فنه الذي امتاز به فيرمي في أسطر متتابعة إلى صور كثيرة متلاحقة يرسلها واحدة تلو الأخرى ، يريد أن يقول : إنها أطياف الفرح يوحيها إلى النفوس إذا لاذت به . وكلها مما يملأ القلوب بهجة ونشوة ، «فهناك ضوء القمر في الليل الساجي وغناء القبّرة ينبعث من برجها العالي في السماء ، ثم صياح الديك بعد ذلك يبدد به الظلام ، بينما يسوق أمامه في نشاط حسانه إلى باب الحظيرة ، ثم كلاب الصيد ونفيره توقظ في مرح الصباح الناعس ، والشمس تنحدر من الباب الشرقي متشحة بالشعل فتبدد السحب ، والحراث يصفر لحناً على مقربة من الأرض التي خططها بالأمس ، وحالبة اللبن تغني طربة ، والرعاة يتلو كل منهم

(١) إحدى إلهات الجمال والرقة الثلاثة ومعنى اسمها البهجة وأخواتها « هاء أجاليا » أو الضوء و « تاليا » أو النماء.

(٢) إلهة الربيع في الأساطير اللاتينية .

(٣) إلهة الخمر .

(٤) إلهة الفجر .

(٥) ريح الغرب المؤذنة بالربيع .

قصته إلى جانب الألفاف الخضراء ، والقطعان والمراعي والمروج الخضر ، والجبال والنهيرات والأنهار الواسعة تجتليها العين في نظرة ، والأبراج الشاهقة بين الأشجار لا يبعد أن تكون مقراً لذات حسن ، فهي لذلك مهوى البصر لكل عين قريبة ؛ ويتراءى غير بعيد دخان ينبعث من كوخ قائم بين شجرتين عتيقتين باسقتين من أشجار البلوط ، حيث يطعم الرعاة طعامهم الشهي الريفي قدمته إليهم الراعيات ، ثم انطلق النساء منهن والصبايا إلى الحصاد يحصدن الزرع ويسوينه حزماً ؛ وثمة فرحة أخرى طليقة يبتعثها مرأى القرى القريبة يلحن للعين على مرتفع ، هنالك حيث تصلصل الأجراس المرحة تباعاً ، وينفي المزمار الطروب فيشجي الفتيان والصبايا ، إذ يرقصون جماعات في الظلال الرقطاء ، وقد خرج الكبار والصغار يرتعون ويلعبون في يوم بطالة ضاح ، ولن يزالوا في مرحهم حتى ينطوي ضوء النهار الطويل . ثم إن لهم بعده متعة في الصهباء تدار عليهم أكوابها إلى جانب المواقد ، ومتعاً في حكاياتهم عن الحصاد وموسمه يقضون فيها شطراً من الليل ... »

ولن ينسى الشاعر أن يورد صور المرح في المدينة ، وقد وفاها حقها في القرية ، فينتقل بخياله إلى المدن ذات الأبراج وما تزدحم به من أخلاط الناس وأنماطهم ، وفيهم زمر الفرسان وذوو البأس من البارونات ، يتفق لهم في ملابس السلم نصر عال على أسراب الغواني ، تمطر أعينهن البراقة السحر على من يبتغون الوسيلة إلى قلوبهن ، ومن يرتقبون مايجزين به اللباقة والفروسية ، إذ تسمي كلتاهما جاهدة للظفر بعطف ملكة الجمال . ويستطرد ملتن في وصف متع المدينة ومباهجها ، فيسوق منها صوراً متتالية كأنها صور فلم بهيج : فثمة حفلات الأعراس وإليها يشير في مهارة بذكر « هيمن » إله الزواج في أساطير الإغريق بملابسه الصفراء ومصباحه الذي يلوح به ، وثمة الولائم والسوامر ومعالم الزينة تتخللها الغنائيات المسرحية بمشاهدها القديمة ، كما يتخللها مايحلم بمثله شعراء الشباب في أمسيات الصيف على ضفاف الغدران المنعزلة ، يضاف إلى ذلك روعة التمثيل ، فإما ملاهي بن جونسون وإما ملاهي أحلى الشعراء فناً ولحناً ابن الخيال الساحر شكسبير يتغنى فيها بألحانه البرية ألحان غابات وطنه ومشاهدها[1] .

ويعود الشاعر في ختام قصيدته الرائعة إلى مناجاة إلهة الفرح فيسألها أن تحيطه بجو ملىء بالأغاني الشعرية الجميلة التي تدرأ عن القلب الهم الذي يأكله ، تلك الأغاني الرقيقة العذبة التي تتمثل في الشعر القوي الرصين يجمع بين جمال السبك ومهارته ، وروعة الفن وفتنته ، فيبلغ من السحر ما يحطم به ما يقيد النفس من قيود الحياة ومشاكلها فتحررها من نشوة الموسيقى ، ويبلغ من الجمال ما يوقظ به أرفيوس[1] نفسه ، فيرفع نفسه من غفوته الذهبية على سريره المتخذ من أزهار الجنة ، ويستمع إلى تلك الألحان التي لو كان تغنى بمثلها لاستمال إليه أذن بلوتو ...

تلك هي خلاصة قصيدته الأولى الليجرو ، وشتان بين هذه الخلاصة في لباس النثر وفي لغة غير لغتها ، وبين الأصل في لباس الشعر وفي بلاغة ملتن وبراعة فنه وروعة لحنه !

* * *

ويفتتح ملتن قصيدته « البنسروزو » بنقيض ما افتتح به قصيدته الأولى فيقول : « إليك عني أيتها المسرات الخادعة ، من الحماقة وحدها ولدت بغير أب . ما أقل عودك على العقول الرزينة ، وما أقل ما تبثينه فيها من الاعيبك ... استقري في بعض الرؤوس الكليلة ، وسيطري على تلك المخيلات المولعة بما لايحصى عدده من الأباطيل والمظاهر البراقة ، تبلغ في كثافتها وعددها ما يبلغ الهباء المعلق في أشعة الشمس »

ويناجي الشاعر الشجن ليأتي إليه ، ويبتعثه بالحكمة والقدسية ، بل يغلو فيجعله أقدس مايلحق به التقديس ؛ ويصف آلهة الشجن بأنها أعظم سناً من أن تطيقها عيوننا ، وعلى ذلك فأننا نراها محللة بالسواد ، ولكن هذا السواد لن يشينها ، فما أشبهها بملكة أثيوبيا الجميلة التي غالبت في الأساطير جنيات البحر فبذتهن ملاحة وأغضبتهن بذلك وأساءت إليهن .

ولا يفتأ الشاعر يدعو هذه الآلهة إليه مصطحبة من يليق من رفقة ، ويضفي عليها صفات الحكمة والتؤدة والتعقل والوقار

(١) يشير ملتن بذلك إلى الفرق بين فن بن جونسون الذي تقف الأغريقية واللاتينية وفن شكسبير الذي غنى على سجيته ولم يعرف إلا قليلا من الأغريقية وأقل منه من اللاتينية .

(١) أرفيون . في الأساطير الأغريقية . أهدى إليه أبولو قيثارة بلغ من مهارته في العزف عليها أن كان ينبض الصخر والشجر والوحوش أينما سار وقد أراد أن يستنقذ زوجته بسحر الموسيقى من پلوتو اله العالم السفلي .

والدأب والجد ، وبصورها تنقل بصرها من السماء إلى الأرض متدبرة متفكرة ، أما الرفقة التي تصطحب فالسلام والهدوء والصوم والعزلة والتأمل والصمت ؛ ويجعل الشاعر من هذه المعاني شخصيات فيتحدث عنها ويصفها كأنما يتحدث عن أشخاص .

ويعرض الشاعر أنماطاً من الصور تناسب حالة التفكر التي يصف أو ماسماه الشجن العاقل . وبقدر ما كان في قصيدته السالفة من مرح وجلبة وفتون ، تنطوي قصيدته الثانية على الوجوم والهدوء والسكون . وأكثر صوره عنا في الليل ، فهو يحب أن يمد سمعه إلى صوت الكروان ، ويحب أن يمشي في سكون تحت القمر حتى يبلغ في السماء أقصى ارتفاعه ؛ ويحب أن يجلس في ضوء مصباحه في هدأة الليل لا يسمع إلا صوت خفرائه ، فيقرأ فلسفة أفلاطون ، ويقرأ الشعر والمسرحيات والقصص الرفيع . والليل هو الوقت الذي يعشق فهو قائمه كله لا يبرح مكانه حتى الصباح كما لا يبرح الرب الأكبر من النجم أفقه ، فاذا كان الصباح فليكن صباحا تكتنفه الغيوم وتتناوح فيه الرياح الهوج ، ويتساقط المطر ؛ وإذا ما قدر للشمس أن تبدد الغيوم بعد لأي فليتوار عن ضوئها في كوخ أو في عش منعزل بين الشجر لا تقع عليه عين ، وهناك فليم حتى ينهض وفي أذنيه موسيقى حلوة من ألحان جن الغابة . وهو يحب أحيانا أن ينقل الخطا متأملا في فناء كتدرائية قوطية عتيقة عالية الأقواس ، توحي إلى النفس ذكرى الدين ، ثم يستمع إلى الأرغن يتصاعد في الجو لحنه فيذيبه اللحن من فرط انتشاء روحه ويستنزل كل ما في السماء حتى يراه ماثلا أمام عينيه . وأخيراً فما أحب إلى نفسه أن يقضي عمره في صومعة منعزلة حيث لا يبرح يطلب الحكمة ويستزيد من المعرفة مما هو بسبب من كل ما في السماء وما في الأرض ، حتى تهيىء له خبرته الطويلة حالا أشبه بحال النبوة .

وتلك هي خلاصة قصيدته الثانية ، وهي من حيث الأسلوب والبيان والفن الشعري كسابقتها روعة بناء وبراعة تصوير وقوة أداء وسمو فن ، كما أنها مليئة كأختها بالاشارات إلى أساطير الأغريق والرومان فلا تكاد تخلو فقرة منها من إله أو آلهة .

ولا يكاد يفرغ المرء من قراءة القصيدتين حتى يتبين أنهما تصفان حياة الشاعر في عزلته بهورتون ، فذلك الأليجرو أو الفتى الطروب هو ملتن في إحدى حالاته ، وذلك البنسروزو أو الفتى المتفكر هو كذلك ملتن في حالته الأخرى ، وما هاتيك الصور التي صورها في القصيدتين إلا ما كان يقع تحت بصره من حياة الريف ومباهجه وحياة المدينة ومسراتها ، ثم ما كانت تحسه نفسه من حب العزلة وطلب الحكمة والانكباب على الدرس ، وما كان يهجس في خاطره من تطلع إلى حالة كحالة النبوة .

أما من حيث الفن فقد بلغ ملتن في هاتين القصيدتين ذروة الشعر الغنائي ، ولم يبلغ قبله ولا بعده من الشعراء في لغة قومه مثل ما بلغه من السمو فيهما . ولا تزال القصيدتان حتى اليوم ينظر إليهما شعراء الغناء نظرتهم إلى قمتين شامختين تطاولان النجم ، وينطق سموهما بالتحدي والاعجاز . ولا تجد في وصفهما أبدع مما ذكره ماكولي عنهما إذ يتعرض لبيان خصائص شعر ملتن ، فعنده أن من أبرز خصائصه قدرته على أن يؤثر في نفس قارئه بما توحيه ألفاظه من صور وأخيلة وأفكار تتداعى من بعد ، أكثر مما يؤثر فيها بالمعنى الذي يؤديه اللفظ ، فكأنما ينتقل تأثيره إلى ذهن القارىء بهذه الصور وبهاتيك الأخيلة والأفكار كما تنتقل الكهرباء إلى هدفها خلال موصل . وكذلك من أشهر خصائصه جزالة اللفظ وإشراقه وجماله وعذوبة موسيقاه وهي جميعاً أظهر ما تكون في قصيدتيه السالفتين . يقول ماكولي : « لن تجد هذه الخاصة أظهر في شيء مما كتبه ملتن منها في الاليجرو والبنسروزو ، ويستحيل على المرء أن يتصور أن تبلغ الصياغة اللغوية درجة أرفع في الكمال مما بلغته فيهما . وتختلف هاتان القصيدتان عن غيرهما كما تختلف خلاصة العطر عن ماء الورد العادي ، أو كما يختلف ذلك القدر الغالي من العطر الذي نعبه حريصين عليه عن ذلك السائل المائع الرقيق .

وما هما في الحقيقة بقصيدتين أكثر مما هما طوائف من التلميحات ، يستطيع كل امرىء أن يتخذ من كل واحدة منهما قصيدة لنفسه ، فكل تلميحة وصف منها كافية لبناء مقطوعة »

ولم تخل القصيدتان من هنات يتمسك بها النقاد ، ولكنها أقل من أن تشينهما أو تنزل بهما عن المستوى الفذ الذي بلغتاه . ونحب أن نرجىء الكلام عن هذه الهنات حتى نفرغ من شعره كله في هورتون ثم ننظر فيما له وما عليه .

(يتبع) الضيف